مقدمة

يوم التكوين، اتقن الصانع الأول صنعته، فجاءت في ذروة كمالها، وشكلت بنية متماسكة متكاملة يزعزعها أدنى تعديل، فجعل الكون متوازناً في كل تناقضاته، بما في ذلك الخير والشر، والجمال والقبح، والنقاء والتلوث. فكانت الدينامية الحياتية ـ لأن التناقضات هي مصدر الدينامية ـ وكل شيء في الكون مرتبط بكل شيء، فلا تعمل ظاهرة بمعزل عن الآخريات.

وعندما خلق، سبحانه تعالى، الكائنات الحية خلق معها رزقها، وزودها بأدوات دفاعية تذود بها عن نفسها، وتؤمّن استمرارها وبقاءها. وكان العقل نعمة من لدنه تعالى، زود به الجنس البشري الذي راح يستخدمه في تطوير مقومات وجوده. بيد أن البعض أساء استعمال هذه النعمة، فحولها إلى نقمة تهدد وجوده وكيانه، بل وتهدد بفناء الحياة الكونية في الحقبة الزمنية الحالية.

لقد كفر البشري بنعم الخالق عليه، فراح يهدم ويشوه ويلوث البنيان الطبيعي الذي يعيش فيه، أي البيئة. فاستجابة للحاجات الحياتية الضرورية المتزايدة أولاً، واشباعاً لنزوة الطمع والجشع والكسب الفاحش ثانياً، كانت الصناعة البشرية، بدءاً من صنع الأدوات الحجرية، مروراً بالزراعة والرعي واختراق باطن الأرض بحثاً عن المواد الأولية، وصولاً إلى الصناعات الإشعاعية وأجهزة الكمبيوتر. وظن البشري في كل ذلك أنه يخلق ويبتكر ويبدع، في حين أنه لا يقوم بأكثر من مسخ الصورة الكونية الأزلية الأولى:

يغيّر المواقع، يبد الصيغ، يخلط الأوراق، يقلب المقاييس... ويشوش الكون. وإذا سلمنا جدلاً بأن البشري مبدع، فإن ابداعه مرتكز على الموجودات والمدركات المسبقة، بينما كان ابداع الله من العدم. وشتان ما بين الإبداعين!.

هذا المسخ أدى، وما يزال، إلى اختلال التوازن الكوني. وهذا لا يعني أن البشر أضافوا شيئاً من عنديتهم، بل هم مارسوا على الكون اجراءات تعديلية فقط. هذا ما أكده العالم الكيميائي «لافوازييه» في مقولته الشهيرة «لا شيء يضيع ولا شيء يولد من جديد». وفي رأينا أنه لم يعتمد في ذلك على المعرفة العلمية فقط، بل وبالضرورة، على قوة تأملية روحانية في آيات الله البيّنات.

إذا، ونتيجة عبث البشر بالطبيعة كان التلوث، الذي أخذ يتفاقم بخطورة، والذي أصبح في مقدمة هواجس البشر في عصرنا الحالي. وتكمن الخطورة في عجز الطبيعة عن استيعاب الملوثات وتمثلها. وهكذا بدأت آثار التلوث تبرز على الكائنات الحية: تدمير النظام البيئي، انقراض أو شبه انقراض لأجناس عديدة من النباتات والحيوانات البرية والبحرية، أمراض وأوبئة لا تعد ولا تحصى، لم تعرف سابقاً، تصيب بني البشر، وفي مقدمتها أمراض القلب والسرطان، وخصوصاً الإيدز.

حالياً، تتعرض البيئة الطبيعية لأسوأ مظاهر الاعتداء عليها من قبل البشر. ونحن جميعاً متآمرون في تنفيذ هذه الجريمة البشعة، بدءاً من المواطن العادي، وصولاً إلى المسؤول السياسي والاقتصادي والاجتماعي والصحي والإعلامي... فالنفايات البشرية في كل مكان، والسحب السوداء تغطي سماء المدن، والنفايات السامة تلوث البحار والأنهار، والحرائق تأكل الأخضر واليابس، وابنية حديثة تغزو سطح الأرض وتشوه جمال عذرية الأرياف... كل ذلك باسم التنمية والتطور وتأمين رفاهية البشر.

إن كل ما نأكله ونشربه ونتنفسه، وكل ما نراه ونسمعه، اصبح

موبوءاً، نتيجة صناعة الصانعين وابتكار المبتكرين، الذين أسكرتهم نشوة الإبداع، دون التبصر بالعواقب المستقبلية الوخيمة، أو انهم ادركوها وتجاهلوها. فكأنهم بذلك يمارسون تدميراً منهجياً ومنظماً للبيئة. هذا التدمير الذي بدأ اليوم يأخذ أبعاداً خطرة تنبىء بكارثة حقيقية في المستقبل القريب، إذا لم تتخذ الإجراءات العلاجية اللازمة ازاء التلوث الموجود، والوقائية ضد التلوث الموعود.

وإذا كانت الصناعة هي كل ما ينتجه الإنسان ويبتكره ويستحدثه، فإن كل التغيرات الكونية الحاصلة ـ باستثناء الناجمة من العوامل الطبيعية ـ هي من صنع البشر. من هنا كان ارتباط التلوث بالصناعة. ولا يمكن الانكار ان الصناعة ضرورة ملحة، والتطور حتمية تاريخية، بيد أن الإسراف فساد. وقد جاء في قوله تعالى: **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذين عملوا لعلهم يرجعون﴾** (سورة الروم ٤١).

وإسهاماً منا في التعريف بمخاطر التلوث البيئي، كانت لنا هذه الدراسة المتواضعة، التي نعتبرها إنسانية أكثر منها علمية. ولسوف نتطرق فيها الى التعريف بأنواع التلوث البيئي وآثاره، وتالياً إلى بعض الأساليب المتبعة في معالجة التلوث وحماية البيئة منه. لعل في ذلك بعض الإفادة، وما توفيقنا إلا بالله، عليه الاتكال وإليه المناب.

وجيه جميل البعيني
لبنان

خالد بن محمد القاسمي
الشارقة ـ دولة الإمارات العربية المتحدة